



أحاول أن تخيل ما كان يفكر فيه أجدادنا قبل مئة عام، عندما كان العدو التاريخي (الإنجليز) يعدهم بالحرية والمستقبل المشرق في حال قيامهم بثورة ضد العثمانيين. ربما لم يكونوا يصدقون بعض الصرخات التي تردد على الهاشم محدرا من الخيانة، ولم يتخيلاً أصلاً أن خلافة عمرها ألف وثلاثمائة سنة ستنهار لأنهم لم يصدقوا.

ربما لم يتخيلاً أيضاً أن جيلهم هو الذي سيشهد نجاح محاولات اليهود المتواصلة منذ ثلاثة آلاف عام لاحتلال فلسطين، ولم يصدقوا من كان يحذرهم من ضياع ثالث الحرمين.

استبعدنا أن تستمر المجازرة المعلنة ضد مدن مأهولة بالأطفال شهوراً معدودة، وظللنا نحصي عدد مرات استخدام الفيتو بأرقام قياسية لتطول المجازرة بلا نهاية منظورة.

أتخيل أيضاً أن آباءنا لم يكونوا ليصدقوا أن عبد الناصر كان يخدرهم بأحلام الوحدة وفقاعات النهضة، وأن حافظ الأسد (بطل التشرينيين) كان قد قبض ثمن الجolan وتركهم يستشهدون فرادى على جنبي الطريق، وأن السادات سيطير بنفسه إلى تل أبيب ليصافح العدو.

وعندما فتحنا أعيننا على عالم آخر يختلف تماماً مما تعلمناه في المدارس، لم نصدق أن عرفات سينذهب إلى أوسلو وكامب ديفيد، ولم يخطر ببالنا أن عباس سيخلفه في حياته ويصبح شرطياً للاحتلال.

لم نصدق أيضاً أن صدام سيحتل الكويت، وأن ثورة الخميني ستعود للحياة من تحت الرماد بالرغم من حرب السنوات السبع العجاف.

لم نصدق أن الجزائر ستسقط في حمام دم، وأن بلد المليون شهيد دون غيرها ستشهد بداية ظاهرة اللжи المزيفة، وأن العشرية السوداء ستنتهي باتفاق صغير دون أي تغيير.

لم نصدق أن قصص "جهاد الصحابة" في أفغانستان ستنتهي باحتراص داخلي، وأن بعض أبطال قندهار سيصبحون أماء حرب، وأن بعض أقرانهم في مقديشو سيصبحون قراصنة بحر.

كنا نشكو من إهمال الإعلام الغربي لنا، فكان يتتجاهلنا وكأننا غير موجودين على خارطة الكوكب. وفجأة انهار برجان في نيويورك، ولم نعد نصدق أننا أصبحنا بؤرة اهتمام العالم، حتى إذا عطس أحدهنا في مطار دولي احتشدت قوات الأمن لتشمله.

وعندما حشد بوش قواته على ضفاف الخليج، تطوع المحللون لطمأنتنا، فلم يصدق الكثيرون أن المجتمع الدولي الذي

نضجت قوانينه ومبادئه سيحتل بلداً منهاكاً ومحاصراً ومنزوع السلاح. وقبل أن نتعافي من صدمة الغزو، لم نصدق أن بغداد الرشيد قد سقطت بالفعل، واحتاجنا بضع سنين لنصدق أن أكثر شعوبنا تسامحاً قد انغمس في حمام دم طائفي لا ينتهي. لم نصدق أن عدواً إسرائيلياً سيتجدد على غزة كل سنتين، ولم نتخيل أيضاً أن عدواً خاطفاً سيدمّر أحياءً من بيروت الجميلة.. باريسنا المدللة التي لم نك نصدق بعد أنها تعافت من حرب أهلية طاحنة.

لم يخطر ببالنا أن ثورة ما ستحدث، ولم نصدق أن أحداً ما سيصرخ "بن علي هرب"، وحتى عندما هرب لم نصدق أن مبارك سيتحى، وأن مرشحاً إخوانياً سيحكم، وأن انقلاباً سيئهي كل شيء في عصرنا الموسوم بربع فيسبوك وتويتر. لم نصدق أن القذافي سيُقتل على أيدينا، وعندما أُسْكِرْتَنا نشوء النصر لم نصدق أن أبطالاً مثلنا سيقتلون فيما بينهم. لم نصدق أيضاً أن صالح سيتحى باتفاق سياسي يحقن الدماء، وعندما أخذت الديمقراطية بعقولنا لم نصدق أن صالح المنسي سيعود على ظهر إيران بحرب إقليمية.

لم نصدق أن شعباً مقموعاً في "سورية الأسد" قادرًا على النهوض، وعندما فعلها لم نصدق أن المظاهرات العابرة ستتواصل، وعندما تواصلت وتوسعت لم نصدق أن "حماة الديار" سيفتحون النار على صدورنا العارية، وعندما فتحوا صدورنا ورؤوسنا لم نصدق أن الجيش سينزل إلى الشوارع بالدبابات والمدرعات، وعندما طحن عظامنا بمجنزراته لم نتخيل أبداً أن طائراته ستدرك أسفنا منازلنا على من بقي حيا.

وحتى بعد هذا كله، لم نصدق أن مدنا صمدت سبعة آلاف عام ستدمر خلال غفوة من عمرنا القصير بنيران جيشهنا، وظللنا نجاج طويلاً بأن العالم المتحضر لن يترك طاغية مجنوناً يقتلنا بالمجان بينما نرسل له مشاهد الجريمة الموثقة بكاميرات هواتفنا.

استبعينا كثيراً أن تستمر المجازرة المعلنة ضد مدن مأهولة بالأطفال شهوراً معدودة، وظللنا نحصي عدد مرات استخدام الفيتو بأرقام قياسية لتطول المجازرة سنينا بلا نهاية منظورة.

وعندما قررنا الدفاع عن أنفسنا، لم نصدق أن الفيتو سيكون ضد منحنا السلاح أيضاً. وعندما أقسمنا ليلاً ونهاراً على وطنية مطالبنا لم نتخيل أن تنبت القاعدة من تحت أقدامنا وأن تسحب البساط وتزحلقنا.

يقال إن العاقل هو من يتعظ بغيره، والأحمق هو الذي يفضل سياسة التجربة والخطأ ويعيد اختراع العجلة، لأنه ببساطة لا يصدق حتى يجرب.

فوجئنا بالهراء المتكرر عن انتقال مليشيا دولة العراق الإسلامية من نهاية الصلاحية إلى سوريا، وكتب بعضنا "لماذا تضييعون وقتكم في الجدل حولها؟".

لم نصدق أنها ستصبح "دولة"، وأن زعيمها سيعلن الخلافة، وأن قاتلنا سيصبح ضد الخارج، وأن ثورتنا ستتصبح إرهاباً دولياً، وأن الطاغية "الفاقد للشرعية" سيصبح حليفاً للمجتمع الدولي، وأن البرعم الصغير الذي سمي بداعش سيتحول إلى بيع العالم الأول، وستحتل أخباره صدارة نشرات الكوكب، وستُنسب إليه عمليات وراء البحار، وسيتشكل لمحاربه أكبر تحالف دولي منذ الحرب العالمية الثانية.

لم نصدق أننا سنأكل لحم الحمير جوعاً، وأننا سنموت غرقاً وحرقاً وحصاراً ودفنا تحت أنقاض بيوتنا. لم نصدق أن نفطنا سيصبح أرخص من الماء. لم نصدق أننا سنذرف الدموع على ببريز.

لم نصدق أننا سنقاتل "الإرهاب" بالنيابة عنمن كان يوماً ما عدونا. لم نصدق أننا سنحذف القرآن والسيرة من مناهج أطفالنا. لم نصدق أن العربية ستصبح تراثاً لا يفهمه صغارنا. لم نصدق أن ذاكرتنا ستتحمى أمام أعيننا كما يمحى وجودنا من أرضنا.

يقال إن العاقل هو من يتعظ بغيره، والأحمق هو الذي يفضل سياسة التجربة والخطأ ويعيد اختراع العجلة، لأنه ببساطة لا

يصدق حتى يجرب.

كنا نسخر من جيل النكسة متباهين بانفتاحنا على عصر العولمة، ولم نصدق أن أبناءنا سيسخرون من عدم تصديقنا حتى نجرب، بل حتى نصبح موضوع التجربة نفسها.  
لا يهمني كثيراً ما سيقوله أبناءنا عنا.. المهم أن التاريخ سيقدم لهم درساً مهماً، وأرجو فقط أن يصدقواه.

الجزيرة نت

المصادر: